كانون الثاني

مروة جمال

.جلسنا جميعاً حول تلك الشعلة طلباً للدفء وربما أملاً في الضوء
الضوء الذي بدأ يصبح أملاً غائباً نسعى جميعاً إليه بعد أن إحتل اليأس عروقنا وأصبح يتجول بحرية داخل أجسادنا بدلاً من الدماء التي أصبحت مجرد ألوان تتزين بها صخور الأرض
ووسط هذا الضجيج بزغ شعاع من الأمل سمعته أذاننا قبل أن تلمحه أبصارنا ..كان محمد يجلس بجانبنا وقد لف حول رقبته شاله المميز الذي حاكته له زوجته خصيصاً ليصبح لوحة فنية مفعمة بكل أعلام الدول العربية ..كان يشدو بصوت مرتفع جميل .

الغضب الساطع آتٍ و أنا كلي ايمان
الغضب الساطع آتٍ سأمر على الأحزان
من كل طريق آتٍ بجياد الرهبة آتٍ
و كوجه الله الغامر آتٍ آتٍ آتٍ

وقتها أحسست أن المكان والزمان قد توحدا وأنني لا أعرف أين أنا كل ما أعلمه أن العدو هو من يقتلني وأن الغضب آت لا محالة

شاء القدر أن أكون شاهداً على تلك الملحمة .. محمد وشذا ..كانت شذا فتاة رقيقة هادئة الطباع لم نصدق أن تلك الفتاة والتي هي زوجة صديق الكفاح محمد هي إبنة هذا الرجل الذي طالما باع نفسه وقلمه وصوته لأصحاب النفوذ .. عفواً هو لا يستحق لقب مفكر ولا يرقى للقب كاتب .. هو بهلوان السلطان

وعشقت إبنة بهلوان السلطان الشاب الفقير وإتخذت القصة مجراها الطبيعي لتتزوج الجميلة بإبن أحد أباطرة السلطة في وطننا المنهوب ويصبح حبها الحقيقي مجرد ذكرى

ولكن إذا أراد الله لهذه الذكرى أن تعود فإنها تعود وبقوة وبعد سنوات من الزواج البائس هربت شذا من الجحيم وقابلت محمد مرة أخرى وتلك المرة لم يستطع أحد الوقوف أمام هذا الحب ... لم تتزوج شذا محمد فقط بل أصبحت بجانبه قلباً وقالباً وهتفت بشجاعة ضد الظلم ضد السلطة وسبحت بقوة ضد التيار

كانت شذا تصرخ بأعلى صوتها رغم أصوات الرصاص حولنا «سلمية» .

نعم كانت تسعى لفرض السلام حولها أينما خطت بقدميها الصغيرتين

وعندما إنفجرت فيها إحدى زميلاتنا تتهمها بالنفاق وتذكرها بأبيها وخطبه الرنانة ضد ثورتنا بل وإتهامه لكل من شارك فيها بالخيانة كانت هادئة مبتسمة وهي تقول : لا تفسحي للدماء مجالاً عزيزتي .. هم يريدون الدماء ونحن نسعى لحقنه .. هذا هو الفرق

وهكذا ظلت شذا تسعى بكل ما اوتيت من قوة فرض السلام حولها وحولنا رغم الدماء ورغم الغضب ورغم الخيانة كانت تصر على مقولتها الشهيرة سلمية

حتى جاء اليوم الذي تغير فيه كل شئ كانت لحظة فارقة ...نعم فارقة

***

هل هذا ضباب؟

لا ليس ضباب كنا نبحث عن بعضنا البعض بيأس رأيت شذا تقف باكية وقد سقط غطاء رأسها الأبيض وتلوث بلون الأرض وأصبح شعرها رمادياً بفعل تلك العاصفة الترابية التي فجرها الظلم بقذائفة فوق رؤوسنا كانت تصرخ بصوت متحشرج فقد بهجته في لحظات : محمد محمد أين أنت

إختفى محمد وإختفت بسمة شذا وحل الصراخ محل الهدوء والحزن طغا على الإبتسامة الكاذبة التي كنا نسعى جميعاً جاهدين في رسمها على وجوهنا

إختفى صوت محمد بأمله وغضبه وحل محله صوت الموت

الموت الذي رأيته في عيناها عندما رأت جسد زوجها وقد تهاوى تحت وابل الرصاص

سقط محمد مثل الكثيرين وأصبح مجرد جسد بلا روح

أصبح مجرد رقم نستمع إليه في نشرات الأخبار متبعاً بلقب شهيد

وبعدها إختفت شذا .. لم نعد نستمع لهذا الصوت الرفيع الرنان الذي إعتاد أن يصرخ فوق رؤوسنا كلما إستبد بنا الغضب فعمدنا لحجر نقذفه أو كرة من اللهب نعبر بها عن الغضب المتأجج بداخلنا ولكن فجأة وفي أحد الأيام وقد إشتد القيظ بنا رغم أننا في فصل الشتاء نتيجة وابل الرصاص والقذائف التي لم تفرق بين الليل والنهار

رأيته .. لم أصدق عيني هل عاد إلى الحياة .. نعم إنه محمد كان يخطو بإصرار وقد إلتف بشاله المميز .. لم أرى من ملامحه شيئاً فقط عيناه وخطواته الصغيرة الواثقة .. كان يمسك بإحدى يديه شيئاً لم أستوعب

ماهيته حتى إكتشفت أنه سلاحاً يصوبه بإصرار نحو الجنود أمامنا وهو

يسقطون أمامه واحد تلو الآخر .. مهلاً .. محمد لم يعرف الرماية من قبل .. ليس بتلك المهارة .. كانت شذا هي من تعلمت الرماية من صغرها ..
إذن من صاحب هذا الجسد الصغير الذي يقتلهم بلا هوادة
ويحي .. إنها شذا
كنت أستمع لصوت أبيها المنبثق من الراديو الصغير بجيبي وهو يتهم كل من يشارك في تلك الثورة بالعمالة .. يدعو للقتل والحرق بقلب ميت كان صوته يمثل معزوفة قبيحة أستمع إليها وأنا أراقب وأصور ما يحدث أمامي ... إبنته تخطو بثقة نحو الموت تقتلهم بدم بارد .. ظلت تخطو نحوهم بثقة حتى إختفت ولم أعد أستمع سوى لصراخ الأب من جهازي الصغير .. إقتلوهم .. أعداء الوطن .. إقتلوهم بلا هوادة !!

***

نعم أنا الصحفى والمدون فلان الفلاني فإسمي لا يهم كثيراً من أنا حتى أضع إسمي أو أنشره فالأسماء التي تستحق الذكر أصبحت بالآلاف وأخشى ان تنفذ منا الأوراق قبل تسجيلها ...
قبل أن تفارق الحياة أعطتني هذا الشريط .. طلبت مني أن أنشره على الملأ كي يستمع له الجميع ..كانت محادثة تليفونية أجرتها مع أبيها قبل اليوم المنشود الذي قررت فيه أن تتزين بشال زوجها الراحل وتأخذ بثأره هو ومن سبقوه حتى تلحق بهم في النهاية
كان صوتها بائساً هادئاً وكانت نبرتها تتسم بالوداع وكأنها تعلم أن تلك الكلمات ستكون آخر كلماتها في تلك الحياة

- مرحباً أبي
- هل ما زلتي تذكرين أن لك أباً أيتها الجاحدة

- وهل الجحود بستحق الموت أبي
- ماذا تقولين
- لماذا تقتلونا ؟
- من أنتم .....أنتم مجرد أدوات ساذجة عليكم اللعنة جميعاً
- لماذا تقتلونا ؟
- عودي أيتها الحمقاء أنتي ومن معك لا تفقهون شيئاً
- لماذا تقتلونا ؟
- أنتم من تقتلون أنفسكم بحماقتكم

صمتت قليلاً ثم تابعت بنبرة قوية : لا بل أنتم من قتلتمونا .. جئناكم بورقة بيضاء تلونت بحروف السلام ولوثتوها أنتم بالدماء ... أنتم من أراد الدماء وسنعطيها لكم

- ماذا !! ماذا تقولين أيتها الحمقاء .. عودي أنتي لا تفقهين شيئاً
- نعم .. الآن أنا لا أفقه سوى شئ واحد فقط ... هل تعلم ما هو أبي
- لا أعلم أخبريني
- العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم

إنتهت المكالمة وإنتهى الحديث فمنذ وقتها لم نعد نستمع سوى لأصوات الرصاص .. حتى الآن .

المكان : سوريا

الزمان : كانون الثاني ٢٠١٢

obeikan.com